ع ع س

عن الشاعر الراحل وصفي قرنفلي

١ ــ من ذكرياتي معه :

دخلت عليه أعوده في مرضه الطويل ... كان ذلك منذ سنتين ، بمناسبة عيد الفصح . ما أن فتحت باب الغرفة حتى نظر في وجهي نظرة المعاتب لغيابي عنه فترة مديدة ، وقال لي بصوت يتحشرج فيه الالم والاسى :

ــ « أين كنت طوال هذه الغيبة ؟.. » .

كان ممددا على سريره بهدوء واستسلام ، ووراء رأسه متكاة طرية وبجانبه راديو « ترانزستور » صغير الحجم جدا يتصل من خلال موجاته بالدنيا من حوله ، والظلام المشمس يخيم على جو الغرفة ، وكذلك الصمت ... لست أدري لماذا أحسست آنذاك انني في دير قديم له طقوسه الجنائزية الخاصة .

كان هذا هو كل عالمه بعد ان حرم متعة القراءة لانه لم يعد يستطيع ان يمسك الكتاب او المجلة ، بين يديه ، فيداه مشلولتان .

الواقع لم تكن يداه فقط مشلولتين وانما كان جسده كله مشلولا راكدا .. كان جسدا يذوب كالثلج تحت شمس المأساة .. كان كومة من لحم بارد وعظم متيبس . شيء واحد كان فيه حيا متقدا ، بل شيئان ، عقله وذاكرته أولا ، وقلبه وعاطفته ثانيا ، انه يحدثك عن ذكريات بائدة مندثرة عمر بعضها اربعون عاما ، فلا يفلت من جزئياتها شاردة ولا واردة الا ذكرها وكأنه يروي لك امرا جرى البارحة . وهو يعتز بهذه الذاكرة الشابة المتيقظة التي لا تخونه : (لقاؤه مثلا بالشاعر الفلاني سنة كذا والابيات التي قالها كل منهما في جلسة خمر ... مظاهرة في حمص قامت عام كذا ضد الفرنسيين ، من استشهد فيها ومن نجا من الزعماء ، وماذا قال الشعراء في وصفها ... زيارته للاتحاد السوفياتي ، وموازاة غرفته لغرفة مولوتوف في المستشفى الخ .. الخ ..) .

طافت في خيالي صور حياة (وصفي قرنفلي) هذا الشاعر العربي الكبير قعيد المرض منذ سنوات ، شبابه المناضل ضد الاحلاف الاستعمارية التي أرادت تطويق قطرنا في الخمسينات ، عمله المبدع في المساحة (طوبوغرافيا) فريدا من نوعه يقطع البلاد طولا وعرضا تحت قيظ الشمس اللاهب وصقيع البرد الجارح ليمسح الارض التي أحب ، شعره الغزل الذي تنبثق فيه المعاني والصور والتعابير بكل جديد انبثاقا فنيا رائعا وخاصة في قصائده الاولى المبكرة التي نشر جزءا منها في مجلة « الآداب » في منتصف الخمسينات ، وكنا ننتظرها انتظارا .

طافت في مخيلتي هذه الصور وغيرها من سلسلة الصور البيضاء والسوداء في حياة هذا الشاعر الفنان الذي كرّمته الدولة فمنحته وسام الاستحقاق من الدرجة الاولى وطبعت له وزارة الثقافة في القطر العربي السوري ديوانه « وراء السراب » وقلت في نفسي :

ــ كيف يستطيع انسان كان يدمن معايشة الناس يوميا ان ينقطع عن الناس فلا يراهم الا لماما من خلال زيارتهم العابرة له ؟!

ــ وكيف يستطيع انسان كان يدمن معايشة الطبيعة دائما ان ينقطع عن مرآها فلا يتملى منحها الالهية الا من خلال شجرة أكاسيا وحيدة تواجه نافذة غرفته ، بعد ان كانت هذه الطبيعة كل حياته ومرتع عمله ومثار صبواته واستغراقاته الفكرية والروحية ؟..

ــ وكيف يستطيع انسان ان ينقطع عن المشاركة في بناء المجتمع العربي التقدمي الاشتراكي الذي كان يحلم بتحققه بعد ان كانت هذه المشاركة تشكل محور همومه وطموحه ونضاله وخبزه اليومي ؟..

ولكي أنتشل نفسي من بئر تصوراتي العميق ، اقتربت من سرير الشاعر الصامت وسألته ــ كما هي العادة ــ عن صحته ، فأجاب بتفاؤل :

ــ هل أخبرتك ؟.. هناك دواء جديد أتعاطاه ، أرسل لي من اميركا خصيصا وهو مجرب ويشفي حالة مثل حالتي ...

وأردف بفرح طفولي :

ــ ولن تمر شهور حتى أعود كما كنت ، أخرج وأمشي وأطالع وألقى الحياة واعيشها ، واعود الى اصدقائي ونفسي ...

كان يقول هذه الكلمات بثقة وأمل كأنه يتحدى مرضه المزمن وواقعه المؤلم ويخلق من صميم مأساته لحن غبطة وسعادة ، ويفتّق من ظلام نهاراته ولياليه الطوال المتشابهة المتآكلة ضياء وابتساما ، وكنت من جانبي أتساءل :

ــ هل يمكن لدواء مهما كان فعالا ومؤثرا ان يشفي مريضا في الستين من عمره أقعده الشلل الرعاش الكامل في الفراش منذ ست سنوات وأفقده الحركة والحسّ والنطق الواضح ؟..

كان يرافقني في زيارتي صديقي الشاعر الشاب (احمد دحبور) وكان قد شارك في مهرجان المربد الشعري لذاك العام ، وأراد أحمد ان يسلي وصفي فحكى له عن المهرجان قائلا :

● بعد أن أنهيت القاء قصيدتي ونزلت عن المنصة سألني (الجواهري) :

ــ من أين أنت ؟..

قلت :

ــ فلسطيني مقيم في حمص .

قال الجواهري بحماسة :

ــ من بلد وصفي قرنفلي أنت ... انه شاعر كبير .. سلم لي عليه ...

(وانفجر وصفي لدى سماعه هذه الكلمات بعاصفة مرة قوية من البكاء والاجهاش لم تكن تنفع معها تهدئتنا له حتى بللت الدموع خدبه دون ان يقوى على مسحها) .

عندما صمت قلت له :

ــ يا صديقي وصفي ، نحن آتينا نعايدك ونعودك .

قال بحسرة :

ــ الماضي يبكيني .. الندم .. الذكريات .. الشعر ..

وتابع احمد روايته قائلا :

ــ واقترب مني (عمر ابو ريشة) وقال : وأنا أيضا سلم لي عليه بالرغم مما بيننا من خلاف (يشير ابو ريشة هنا الى قصيدة لوصفي قرنفلي يهاجمه فيها لسبب ما) .

وعاود وصفي ثانية البكاء متأثرا بتحية ابي ريشة اليه .

طوال ساعتين كنا نحن نجاذبه أطراف الحديث ، نحاول ان نسري عنه ، ننسيه المحنة التي يعيشها بأعصابه المنتهية . لم يكن هو قادرا على الكلام ، كان الشلل قد قارب الوصول الى لسانه وكان هذا اكثر

ما يضنيه ويعذبه : ألاّ يستطيع القراءة ولا الكتابة ولا حتى التمتمة .

ومن طرفي كنت من امهر اصدقائه الذين يتمكنون من ترجمة غمغماته انلسانية اللامفهومة وتحويلها الى معان مفهومة . لقد حفظت تذكاراته وحكاياته التي يرددها في كل زيارة بعد ان اصبح عالمه جد محدود : (« غارسيا » اسم اصله عربي ، افتح البخلاء للجاحظ، في الصفحة كذا تجد اسم غارسيا محرفا في الهامش الثاني ... صحيح انني لم أدرس النحو ولا علوم العروض ، لكنني أتحدى الخطأ نفسه فيهما .. الخمرة والمرأة .. لا .. الخمرة والجنس هما دائي ، وكذلك الكبرياء ، أولا الثلاث ما وصلت الى هذه الحال البائسة ... هل ترى صديقي الشاعر (فلانا) ـ ويتحشرج صوته بالبكاء ـ ما زارني منذ سنتين (ويتنهد) . لندن اذاعة مخططة جدا ، الاغنية فيها والحديث والتعليق والموسيقى والاخبار والمقابلة وجميع البرامج تسير نحو تحقيق هدف واحد مدروس . الانكليز يحفرون قبر الشعوب بالابرة و «يضحك») .

خرجنا أنا وصديقي أحمد دحبور من الزيارة منهكين مرضا ، بكينا معه وعليه اكثر مما بكى . أنا في الثالثة والثلاثين شعرت بعد مغادرتي لبيت وصفي انني في الثمانين من العمر وأن الحياة سخرية لا تطاق ، واننا نحن البشر ضحاياها وذلك بالرغم من انني أزور وصفي في مرضه منذ لازم الفراش بين الشهر والآخر (لكنني لم أره على مثل هذا النمط من الانتهاء المفجع ، والاحساس الاكيد بالموت والتعلق الاسطوري بالحياة ، والبكاء الطفولي العجيب) .

مشينا في الطريق ذاهلين ، حزينين ..
أحمد أحمد احزانه في صمت قارس قارس ...

وانا اخمدت احزاني بأن عدت الى شريط ذكرياتي مع وصفي قرنفلي على مدى عشرة اعوام كأنها رفة الحلم وتهويمة الخاطر واطراقة الجفون ...

ثم ... ثم افترقنا دون كلمة وداع .

٢ ـ وقفة مع ديوانه « وراء السراب »

كانت الحركة الشعرية في حمص بعد الثلاثينات ناشطة ملونة لدواع عديدة ، منها شيوع تيار العبث والاحياء على ايدي الشعراء التقليديين في المدينة ، ومنها مناوأة الشعراء للاحتلال الفرنسي كطليعة للشعب ، مما فتح أمامهم مواضيع خصبة للنظم والتحميس ، ومنها تحرك المجتمع نحو بناء حضاري جديد ، ومنها مأساة فلسطين بعد النكبة الاولى وما تركته في القلوب من جروح وفي النفوس من أسى وثورة .

وكان للشعر في حمص يومئذ مدرستان ، او منزعان ، تقليدي وتجديدي بينهما صراع ومنافسة ، وكان من زعماء المنزع التجديدي بل من غلاته ورؤوسه وصفي قرنفلي .

كان وصفي رومانتيكيا بطبعه واحساسه وغربته الروحية الدائمة، وكانت حياته في بداءتها ضربا من البوهيمية اللامسؤولة ، فاشتركت النزعة الرومانتيكية مع النزعة البوهيمية في خلق شاعر تصدى منذ راح ينظم الشعر عام ١٩٢٧ لمحاربة الشعر السلفي المحافظ واستطاع بعد جهاد طويل متواصل ومعارك أدبية عنيفة شهدتها الصحافة السورية في الخمسينات شعرا ونثرا أن يرسي ما يشبه الاسس لاتجاه المدرسة الكلاسيكية الحديثة « نيوكلاسيك » وما يتفرع عنها من تيارات واتجاهات تتراوح بين الواقعية والبرناسية والرمزية لا في الشعر الحمصي فحسب ـ ان جازت التسمية ، وهي ليست بجائزة ـ بل أكاد أقول في شعر القطر العربي السوري عامة ، تلك المدرسة التي تخلصت الى حد ما من اللهجة الخطابية التي سادت سابقا واتكأت على معطيات الرومانتيكية شكلا ومضمونا وأصبحت تغني آلام الذات الشاعرة ، وتعبر باخلاص عن التجربة المعاشة وتعتمد في صياغتها على النغم الشعري الهامس وتتأنق في اختيار ألفاظها الناعمة الهفهافة ذوات الجرس المهموس والظلال ، وتصب في القصيدة جماع عواطفها المحترقة ولا تقيم للمقاييس الفنية الصلبة او العقلية الاجتماعية الجامدة كبير اهتمام .

والواقع ان وصفي يملك موهبة ممتازة في التعبير عن خلجات النفس الانسانية والعواطف المتلهفة والاحاسيس الطاغية ، لذا فالكلمة عنده شحنة من الشعور المتدفق والصدى الرمزي المسموع في الموضوع واللفظة والصورة ، غير انه لا بد لنا ان نتساءل : من اين أتت وصفي هذه الايحاءات الرمزية وكيف تسنى له ان يطعم بها شعرنا المعاصر ، وهو الذي يعد ذا اطلاع محدود على أفق الشعر الفرنسي الرمزي وأعلامه الكبار كبودلير ورامبو وفيرلين ومالارميه وفاليري وجان‌مورياس وغيرهم ؟ وجوابنا على ذلك أن وصفي تابع قراءة مؤسس الرمزية الاول في لبنان الشاعر المقل « اديب مظهر » بعد ان استطاب عطاءه فأخذ يقتفي خطاه ويصوغ شعره على شاكلته ، مستعينا بابداعاته الخاصة حتى تفرد بشخصيته الشعرية اثر قبسه اول ملامح الرمزية من « اديب مظهر » في مثل قوله (أي مظهر) :

وهناك في الوادي غدير تائه متلفت بين الجبال نفور
يهفو الصباح فيستحم بمائه وينام عند ضفافه الديجور

والخلاصة أن وصفي خلق ما يقرب من مدرسة شعرية لها تلاميذ يستعيرون ريشته وألوانه وخياله ويقلدونه في معجمه اللفظي الشفاف وفي بعض اغراضه الشعرية واستغراقاته الوجدانية وعلى رأسهم الشاعران الفقيدان عبدالسلام عيون السود وعبدالباسط الصوفي ، وقراء معجبون ينتظرون انتاجها ويدافعون عن خطى التجديد والجرأة عند شعرائها .

واذا تعمقنا في قراءة وصفي ودراسته من خلال ديوانه « وراء السراب » خرجنا بالملاحظات التالية :

الاولى : فالصورة في شعره وليدة الكلمة وضلع من حروفها فهي أحيانا مثقلة بالضباب مضمخة بالغموض ، واحيانا اخرى صافية كجبهة الطفل ، مشرقة كالصباح الوليد ، وهو في هذين النوعين من الصور ، مخلص للصورة نفسها في بيتها الواحد ، بل شطره ، ابعادها وجوها وجدتها ، ولا يهمه ان يرسم لوحة يؤطرها بالخطوط الزغبية ، ويظهر هذا الاخلاص للصورة المفردة في قصيدته الوصفية الرائعة « صلاة » حيث يهمي فيها على صباح الربيع شوق العطور ونشوة الارض ، وحيث تتجلى حاسة النظر عند الشاعر ودقة التقاطها للصورة الفنية وشفافية رؤيتها في تداخل الالوان وصفائها : لون الصبح الازرق ، والبراعم الخضراء ، والندى اللؤلؤي ، والخمر الارجواني كأنها قوس قزح :

هزّني صاحبي وقال : « أفق ، فالصبح نديان ناعم يتفتح
قم أخا الشعر فالقوافي عذارى ، عاريات كالصبح في المرج تصدح
همّ نيسان بالعتاب : أيفغي في صباحي ؟.. والكأس باللوم أفصح
فتثاءبت والكرى في جفوني ، وتناهضت نحوه ، أتأرجح
فاذا الصبح في غلالته الزرقاء ، ساج ينهلّ طيبا ويلمح
رفّ وانسل من براعمه الخضر ، طربا ، مهفهف الخطو ، أفيح »

وتتمتع صورة وصفي بالحركية الجسدية والمعنوية تعبيرا عن حالة عضوية او نفسية معينة . وادخال الحركة الطبيعية في التصوير الشعري ، فن صعب ، اذ يحتاج الى الالتقاء بين الالفاظ في تتابعها وزخمها كالطعن المتلاحق وما يقابلها من معنى حركي لتكتمل الاندفاعة ويتضح المجهود :

ومن الشاعر المدلّ بما يندى جبين الاحرار من بهتانه

انه .. انه واغمدت سكيني وراء الوريد من شريانه

أو :

فتن تقول : ـ هنا ، وتومىء فتنة وتهم أخرى
ماذا أرى ؟.. سبحان ما ... وأبيك ما أضمرت كفرا

والثانية : تتعلق بشخصية الشاعر ذات الابعاد الحضارية والنفسية والاجتماعية والسياسية ومواقفه من الحياة والاحياء ، فوصفي انسان ثائر ، رافض ، غاضب ، جموح ، متمرد على معطيات العلم التي جعلت من المخلوق البشري آلة صماء ، رافض للموروثات الشرقية التي كبلت تقدمنا الاجتماعي ، غاضب على الزعانف التي تفكر بعقلية العصر الحجري ، جموح في التأمل والهدف . وهذه الخصائص النفسية والسمات الشخصية والاعتقادات الذاتية تنعكس كلها في قصيدته الخالدة « سراب » . ومن يقرأ هذه القصيدة الطويلة يقف امامها دهشا ، فهي ملحمة النفس الانسانية في صراعها الراعف وسفر الازل في تناقضاته الغريبة . واذا كان لكل شاعر قصيدة كما يقول الفرنسيون فان قصيدة وصفي قرنفلي هي « سراب » . وسراب تعبير شعري شاهق عن مأساة « الفراغ والعدمية » بمعناها العميق ووصف تراجيدي لتهافت الانسان في عالم المادة الرخيص والدنس الوجودي وعرض مجسم لارتخاء الذات امام معضلات الحقد :

عصف اليأس بالبقية من كأسي فأفرغت في التراب شرابي
ونفضت المنى فأهوين انقاضا: «الى النار يا سياط العذاب»
ان شر الجراح جرحك يا يأس بل الموت دون هذا العذاب
يا لرجس العلوم أنقى وأسمى، من جميع العلوم طهر الغاب
يا لفقري حرمت حتى من الدمع ومن رعشة الاسى في اهابي

لكن هذه المواقف التمردية الرافضة لا تعني سلبية وهروبا في نظرة الشاعر للانسان ، فهو عطوف عليه ، رفيق به ، محب لبني وطنه وقوميته العربية ، مدافع عن كيانها ، ومن هنا كثر الشعر السياسي في ديوانه عندما حاول ان يجعل قصائده هادفة تخدم قضايا السياسة والمعترك النضالي ، مما احالها في بعض الاحيان معنى وصياغة أشبه بافتتاحيات صحف شعرية تخلت عن الفن وأشاح عنها الابداع وماجت فيها النثرية ، وقد لمح هو نفسه هذا التدني في الشكل والمضمون فكف عن الشعر السياسي والمنظومات النازعة قبل ان يتوقف نهائيا عن النظم ، الا ان هذا لا يلغي قيمة بعض قصائده السياسية ، ففي عدد محدود منها ، يرتفع فنيا الى الذروة ويبرهن على اصالة وجودة وشعور جماهيري لهاب :

عرب نحن ، والعروبة انسان شريف يستنكر العدوانا
كل تاريخنا انطلاقة أحرار وشعر يستصغر العبدانا
كلما هم فاتح او غزانا، ضاع في السفح واستطالت ذرانا
نحن معنى الربيع نورا ودفئا وازدهارا فمن رآه، رآنا
نحن معنى من الطليعة في الشعب اذا الشعب هزنا أو نخانا

والثالثة : تتجه نحو محاولات التجديد الجذرية في شعره ، فقد استطاع ان يوحد فكرة القصيدة ، ان يجعلها كلها تدور حول منطلق واحد ، لا ان يستقل كل بيت بفكرة ثم لا يربط بين الابيات وافكارها رابط او ناظم كلي ، وأجود مثال على هذه التجربة قصيدته « كآبة » :

عقدت هدبها على حلم ميت ولفت آلامها بابتسامه
ولوت جيدها كما لوت العنق على مرهف الشعار حمامه
ووراء الضلوع تنتحب الروح انكسارا ، ذبيحة مستضامه
ماتت الذكريات الا ظلالا ، حضنت قلبها ولمت حطامه ...
يبس الدمع في الجفون وغض النظر الميت لا يرى ما امامه

واستطاع ايضا ان يميز غزله بالبوح الحواري الحار ، وكثرة الالتفات والمخاطبة ، ثم السؤال وانتظار الجواب ، بين جمل معترضة متكررة بجمال وحيوية ، وهذه الحوارية الشعرية ، ان صح التعبير ، تكاد تكون ميزة عرف بها وصفي من دون شعرائنا المحدثين ، ولذا يصعب تقليدها :

على شفتيك ، متكأ المعاني وفي الهدبين قافية وبحر
ونهدك ـ آه ظل النهد ـ حلم تفتح في الصدار فقيل: فجر
خطى.. نغم.. وخصر مستجيب سرى فالافق أنى سرت خمر
فاما قلت ، برعم كل حرف وماج فهل سقيت اللفظ عطر

* * *

عاش وصفي حياته مرتحلا « موكلا بفضاء الله يذرعه » من قرية الى اخرى ومن بادية الى بادية ومن مشروع الى مشروع بحكم وظيفته في المساحة والري ، فولد فيه هذا الترحل الدائم صفة القلق وعدم الاستقرار حتى بالنسبة للافكار الايديولوجية التي يعتنقها ، الا ان هذا السفر الطويل المستمر ـ من زاوية ثانية ـ اعطى تجربته الشعرية فيضا من التنوع والحرارة ، وكان ان الهبت طبيعة المناطق التي يتنقل فيها بينها من جفاف ويبوسة وبوار الى جنان خضراء ثرة المياه، مخيلته الطليقة فاختزنت صورا ابدع الشاعر في استغلالها بالوصف على نوعيه : الخارجي ـ الطبيعة ومعطياتها ـ والداخلي : ـ النفس ومعطياتها ـ . ومع ان عمله أنهك صحته وأضنى جسده وأبعده عن اصدقائه وأهله ودنيا الحضارة الالهية التي يعيشها الناس وما فيها من ترف ورفاه ، فانه يعتز به اعتزازا اصيلا ، لانه مثل عمل الكثرة الكاثرة من هذا الشعب الذي يسعى وراء اللقمة بالدم المكدود والعرق المتساقط وهو ابن الشعب ، عايش الصميمي المعذب من طبقاته :

أنا للشعب ما حييت وللدرب يمينا لا تعرف التأويلا
انا للكادحين ، منهم، وفيهم سل جبالا ذرعتها وسهولا
بي من البؤس ما بهم ومكاني بينهم حيثما تولوا سبيلا

الا ان وصفي عاش حياته عريضة عميقة طويلة ، بكل دقيقة .تمر وصباح يشرق ومساء يهوّم ، ونرجيلة تقرقر ، وكأس تجهش روحه على ضفافها ، وجسد امرأة قدّوس يتعبد مفاتنه ، ومنظر سحري ندي ، على كتف (الميماس) يصلي له وحلقة من الاصدقاء الاوفياء حول منضدة يدور فيما بينها حوار في الشعر والسياسة وصبوات النفس وآمال المستقبل ، ولكن اجمل حديث وألصقه بالشاعر ، كان حديث الحب والصبابة ، فهو يميل الى المرأة جحيم شهوة ، ويرى فيها عالمه الاسمى الذي يخلصه من أدران عالمه اليومي وارهاق الغبار ووهج الشمس ولغة الارقام والحسابات الهندسية بعد نهار بل قل نهارات مديدة ، وينقله الى سحر العطور وبرعمة النهد وغلالات الحرير وهمس النشوة :

غمزت وزاف (البنطلون يلفها ساقا وخصرا
وتأودت في الضفتين ، تأود النغمات ، نضرا
ماذا ترى ..؟ وترامت اليمنى وشال الفنج يسرى
ـ ماذا أرى؟.. سبحان ما، وأبيك ما أضمرت كفرا
وسجدت بالهدبين أمسح جسمها وأخط شعرا
في السفح قافية ، أدغدغها ، ودون الركن عشرا
وعلى الشفاه تقطر (الكرز) اللذيذ وزف عطرا
وعلى ظلال الهدب أغفت قبلة كالخمر سكرى

. . .

أنا شاعر القبلات بيضا ، ما لهن صدى وحمرا

. . .

٣ ـ حفل تأبين الشاعر الراحل

أقام اتحاد الكتاب العرب بسورية في نهاية شهر شباط الماضي حفلا تأبينيا تكريما للشاعر الراحل وصفي قرنفلي في صالة سينما الزهراء بحمص حضره ما ينوف على الفي شخص بين أديب وصديق ومعجب جاءوا تقديرا لذكرى شاعر عربي بارز ، وهب نفسه وفنه لقضية العروبة والاشتراكية وكان صوتا حرا جهيرا من اصوات الالتزام

المبكرة في هذا القطر ووقف شعره على محاربة الاستعمار وأعوانه في مطالع الخمسينات حيث كانت الهجمة الامبريالية على وطننا في ذروتها ، ولون قصائده بلون الكفاح القاني من أجل غد عربي مشرق ترفرف عليه رايات التحرر والوحدة والعدالة الاجتماعية ، وأخلص العطاء لوطنه فكان وطنه حبيبا به ، مقدرا نبوغه .

● اشترك في تأبين الشاعر الفقيد (الذي ولد عام ١٩١١م ومات في ١٢/ ١٢/ ١٩٧٢) مراد السباعي ، شوقي بغدادي ، عبد المعين الملوحي ، حامد حسن ، الياس خليل زخريا ، عبدالرحيم الحصني ، نزار قباني ، انطوان مقدسي ، وعفيف قرنفلي عن آل المحتفى بأربعينه .

● شوقي بغدادي لفت الانظار بالشكل التجديدي لقصيدته التي حوت شعرا عموديا ، وشعرا حديثا ، ونثرا موسيقيا موقعا ، جاءت جميعها لترسم لوحة حزن انساني شفاف ، يرصد فاجعة المخلوق البشري بالموت ونهايته بالعدمية .

● هاجم كل من الشاعرين السلفيين عبدالرحيم الحصني وحامد حسن الشعر الجديد والشعراء المجددين ، دأبهما في كل مناسبة منبرية فقال الاول :

يا ساكب الشعر من مكنون مهجته ... عدت على الشعر في أيامنا الغير
اذا انتخى نفر للذود عنه بدا ... يسعى ويمعن في تهديمه نفير
من كل مستأجر باغ يكاد على ... جبينه ينطق البهتان والاشر
ولوّا على الضاد غلمانا وما علموا ... اي الاواصر من امجادهم بتروا

وقال الثاني :

والشعر..والشعر كرم الله، دنسه ... وعاث يعبث فيه الثعلب الولد
كنوزه نهب أيدينا ، نبعثر ما ... شاء الهوى، ننتقي ما طاب، ننتقد
ينهلّ كالغيث ،يبقى في مساقطه ... ما ينفع الناس ، لكن يذهب الزبد

● كان نزار قباني نجم هذا الحفل التأبيني الضخم ، ولان نزار ، لا يرضى ان يرخص شعره ويجعله مطية تمتطى في الاخوانيات، ولانه صديق حقيقي لوصفي قرنفلي الذي لم يجامله ابدا يوم رد على قصيدته المشهورة (خبز وحشيش وقمر) بقصيدة مضادة منشورة في (وراء السراب) لم يكن لها بالطبع وقع قصيدة نزار الثورية في وقتها، ولا اصداؤها الاجتماعية والادبية ، لهذا ولذاك لم يكتب القباني قصيدة رثاء في رفيقه الراحل ، بل كتب كلمة « نزارية » كانت تدبيجا والقاء اروع من الشعر ، وقوبلت بالاعجاب انحار من جماهير الحاضرين ، وترددت ، ولا تزال ، اصداؤها في حلقات حمص الادبية والشعبية .

● وبمناسبة زيارة نزار قباني لحمص (وهي الاولى في حياته) نظم له اتحاد الكتاب العرب أمسية شعرية في سينما الزهراء تدافع لحضورها الشباب من الجنسين (وخاصة الناعم) بشكل لا يصدق ، حتى عدّ محسودا من أتيح له موضىء قدمين ، يعلو بهما مشرئبا من نهاية القاعة الكبيرة ليرى الشاعر وهو يلقي قصائده .

وبعد اختتام الامسية (التي استمرت ساعة ونصف الساعة) حاصر الجيل الجديد من فتيات حمص الشاعر القباني وقدمن اليه أوتوغرافاتهن ليوشحها بتوقيعه .

وقد سأل المحرر الادبي لجريدة (العروبة) المحلية الاستاذ نزار عن انطباعاته حول زيارته لحمص فرد قائلا :

« لم أندم في حياتي على شيء بقدر ندمي على أنني لم أضع حمص على خارطة تنقلاتي الشعرية ... فهذه المدينة الرائعة أعادت اليّ الايمان بالشعر وأكدت لي أن الحمامصة هم أنقى واطهر من يصغون الى الشعر وينوبون فيه ذوبانا كما يذوب الصوفي في ربه » .

حمص — ممدوح السكاف

العراق

رسالة من ماجد السامرائي

نشاط فني كبير

تميز النصف الثاني من شباط ، وآذار بنشاط ملحوظ في مجال الفن التشكيلي في العراق .. بما قدم من معارض ، لم تتميز بكثرتها وحسب ، وانما بما قدمته من اعمال ، امتاز الكثير منها بجودته . ومن هذه المعارض : معرض سعاد العطار ، ومعرض ليلى العطار ، ومعرض الفنان السوري غياث الاخرس ، والمعرض العراقي ـ السوري المشترك ، الذي اشترك فيه ثلاثه فنانين من العراق (صالح الجميعي ، ضياء العزاوي ، رافع الناصري) وثلاثه من سوريا (نعيم اسماعيل ، الياس زيات ، غياث الاخرس) .. ومعرض الفن الفرنسي.. وافتتاح « كاليري ٣ » الذي بدأ يقيم معارض ثابته ، وبشكل مستمر. هذا بالاضافة الى معارض اخرى كثيرة .. حتى ان النشاط التشكيلي كان هو الاكثر سيطرة على الحياة الثقافية خلال هذين الشهرين .. مستقطبا الكثير من كتابات الصحافة الفنية في القطر ..

ونقدم هنا ، في هذه الرسالة ، ملامح عما قدمته بعض هذه المعارض ، واختيارنا لهذه المعارض دون سواها لا يعني انها افضل المعارض .. وانما يأتي ذلك من منطلق اعتقادنا بانها قدمت ما أثار التعليق ، وتعدد وجهات النظر .. ولان بعضها يمثل مسارا جديدا في الحياة الفنية لاصحابها ..

معرض سعاد العطار :

بلا عناوين ، قدمت الفنانة سعاد العطار معرضها الشخصي السابع الذي ضم مجموعة من اعمال البورتريت .. مكتفية بكلمة قصيرة في دليل معرضها هذا ، تؤكد ان « هذه المحاولات اكثر من مجرد تمثيل للوجه الانساني ، أو تجسيد مسحاته الجمالية . ذلك لانه يظل بالامكان دائما ان يطل علينا ذلك الوجه ، من خلال ابسط الخطوط ، مرآة يختلج على ابعادها ذلك الخضم من الانفعالات الداخلية » !

وقد أثار المعرض وجهات نظر عديدة ، ومتباينة في تقويم هذا المعرض .. فالفنان ـ الناقد شاكر حسن آل سعيد يرى ان الابعاد الفكرية لاسلوب سعاد العطار هي « في كونها محاولة لتثبيت المظهر الخارجي للوجه الانساني منظورا ، لا من عدة زوايا للنظر فحسب ، بل لعدة مرات للموضوع الواحد » ، اذ « تعطي لنا هذه المحاولة الجديدة دفقا جديدا لفنها الذي يمكننا ان نصفه ب « التجريبية » انقاذا له ، على الاقل ، من كونه فنا مترفا .. » .. بينما يرى الناقد سعدون فاضل أن المتتبع للمسار الفني لسعاد العطار يستطيع ان يستشف من معرضها الحالي ما يمكن ان يوصف بنفس التقنية الفنية، والمعالجة اللونية . ويعيد الناقد قول بيكاسو ، في معرض حديثه عن فان كوخ : « ان ما يهمني هو عذابات الرسام » ، ليتساءل : ترى هل استطاعت الرسامة سعاد العطار أن تعبر من خلال الصور الشخصية لمعرضها عن تلك العذابات ، أو « المذابح الداخلية » التي يقدّر الانسان أن يعاني منها ؟ » .. ليجد « ان المعرض الحالي يمثل رغبة ، وان كانت لا واعية ، للتأكيد ، من قبل الرسامة ، على انها قادرة على ان تنجز « اعمالا كلاسيكية » .. ولها القدرة ايضا على تمثيل المرئيات .. » ... « ومع كل هذا ، يظل الاحساس بأن الصور الشخصية التي تناولتها سعاد العطار تعطي الاحساس بأنها ، في معظم الاحيان ، يمكن ان تقترب الى فن الملصقات ، مع ان الفنانة تهدف ، بالشكل الرئيسي ، الى استعمال الوجه الانساني للتعبير

عن الابعاد الداخلية ، الا انها تظل ، مع ذلك ، تواجهنا بوجوه مترفة لا يبدو عليها اي شيء من القلق والانفعال النفسي » ..

لكن السؤال الذي يمكن ان يطرح امام اعمال معرضها هذا ، هو : هل حققت الفنانة لاشكالها لغة يمكن أن تماثل لغة اشكالها السابقة ، أو نقف نظيرا لها ؟

هذا السؤال يعيد مسألة تقويم ما قدمه المعرض السابع لسعاد العطار من جديد ، بتحليل مضمون عملها ، وقراءة اشكالها السابقة، والحالية . فاذا كانت لوحات هذا المعرض سهلة القراءة ، كما يبدو للوهلة الاولى .. فان ذلك « التساؤل » الكامن وراء تلك الوجوه .. وفي العيون .. في تناثر الشعر ، كما في ملامح الوجوه ذاتها ، يبقى هو الصعوبة الوحيدة القائمة ، والتي تحتاج بالفعل الى استعادة « المضمون الفكري » لاعمال الفنانة ، وتتبع مساره من اول معرض لها، حتى هذا المعرض . ولا اشك في اننا سنجد الصلة قائمة ، بهذا الشكل او ذاك ، من الماضي والحاضر ..

شهرزاد وشهريار :

اما الفنانة ليلى العطار فقد قدمت معرضها في موضوع واحد ،: هو « شهرزاد وشهريار » ..

وربما هي الآن ، واكثر من اي وقت مضى ، تترك ليلى العطار تلك « اللغة الحائرة » تتجد مسارها الفني .. فيكون للوحة تكوينها الخاص بها ، وموضوعها الواضح الابعاد .. والاهم من كل هذا ، انها تمنح اللوحة بعدا شديد الايغال في جوهر الحياة الانسانية ... حيث جعلت من « الموضوع الواحد » محورا للوحات عديدة .. ومن اللون لغة تعبر عن احساس ، في الغالب هو احساس داخلي ، كأنه «هاجس » ..

في هذا المعرض هناك ثلاثة مستويات للعمل الفني ..

ـ هناك اولا وحدة الموضوع .. وهو ما تشكله « شهرزاد وشهريار » أو هو بعد واحد من أبعاد هاتين الشخصيتين ..

ـ وهناك ، ثانيا ، المضمون ، والذي يبرز في هذه العلاقات اللونية التي تطرح المضمون بأجرأ أساليب التعبير كثافة وتركيزا ..

ـ وهناك ، ثالثا ، المضمون الكامل ، وهو تجسيم لواقع ، وتلخيص لنظرة الى قضية العلاقة الانسانية (بين المرأة والرجل) . تنفذ الفنانة الى أدق التفاصيل ..

ان الفنانة في معرضها هذا تخلق للاسطورة ، او الحكاية ، معنى تقتحم من خلاله هذا المجهول القائم الذي اسمه « الانسان » ، لتكشف عن اشياء في طبيعته . وهي اذ تحدد « أسطورتها » بنطاق من المعنى يفصح عن أبعاد هذه العلاقة ، فانما لتعكس ذلك « الجانب الوجداني » في الفن . وبرغم ما يستشف من اعمال الفنانة هذه لمحات « وجدانية » ، فانها ، وببراعة ، سيطرت على موضوعها ، وحولته الى نطاق انساني عام .. بحيث جاء تداخل الوجدان المعاصر بموضوع الاسطورة تداخلا شفافا حقق للوحة بعدها : الفني والفكري.

ولعل المهم في لوحات معرض ليلى العطار هذا ، هو ان «الحكاية» التي اعتمدتها اساسا في بناء موضوعها قد ملأت فراغا في نفسها .. او هي فجرت ينابيع معطيات كثيرة ، ليتحقق ، وبفعل ذلك ، بعد ثالث يتلخص في منح الاشكال « كينونتها » الحية .. وقد عمدت الى اظهار ذلك وتجسيده من خلال الامتدادات التي تشبه الجذور او العروق ... فاضفاء ما يشبه « النسيج النباتي » الى التكوين العام للوحة هو ما يرمز الى « الامتداد الموضوعي » للفكرة التي تتحدر من « الاسطورة » الى « الواقع » ، ومن «الماضي» الى «الحاضر» ، بنوع من التواصل والتعاطف ، او حتى الاندماج الكلي ..

المرأة عند « ليلى العطار » تعيش في عالم بسيط يسيطر عليه الرجل .. ولكنها ، وبالرغم من ذلك ، لها وجودها ، وكينونتها المتحققة بأشكال (معنوية) مختلفة . وتكتسب هذه الاعمال اهميتها بما توجده الفنانة من عناصر « التفاهم » بينها وبين موضوعها .. فتنفذ الى ماهيته ، وتعيد بناءه وفق تشكيل ربما هو جزء من حضور لفكرة ، او هو هذا « الحضور » ذاته .. فتنفتت « الحكاية » ، مستحيلة الى « تصور » تعالم قائم وجدت الفنانة امتداده التاريخي (الموضوعي) . ومن هنا اصبحت « شهرزاد وشهريار » مرآة لواقع (نفسي واجتماعي) .

من هذا الفهم لاعمال « ليلى العطار » يمكنني القول ان اعمالها في معرضها هذا هي من المحاولات الجادة لاعادة صياغة الواقع من خلال الاسطورة ، بحيث يلتقي هذا الواقع بعالم الاسطورة ، متخذا مداه الابعد بالتقاء الظاهر بالباطن ، والحياة بالموت .. وبالتالي ، فهو جانب من قلق عالمنا الشرقي ..

أهمية اخرى لمعالجات ليلى العطار هذه .. هي ما يتحقق فيها من تفاعل بين « الذات » وبين « جوهر الحكاية » ، لينشكل ، في النهاية ، جانب من الحياة مهم ، بقدر ما هو غامض ، مستتر .. فهو واضح يعيش حضوره في اقصى درجات الوعي . ولعلها جرأة نستأهل اكثر من تقدير هذه التي تمثلت بالفنانة ، لتكشف حقيقة العلاقة الانسانية بين الرجل والمرأة ، بنوع من النشاط الذهني ، الشاعري ، الممتزج بكثير من النبضات الرومانسية ... ولعلها باقدامها على « تشخيص » كهذا انما تطلب ان ننظر الى هذه «العلاقة» من داخل نطاق الممارسة ذاتها ، بهدف التوصل الى استجلاء ابعاد كائنة في صميم هذه « العلاقة » من داخل نطاق الممارسة ذاتها ، بهدف التوصل الى استجلاء أبعاد كائنة في صميم هذه العلاقة . وبهذا المعنى يمكن ان تكون اللوحة تجسيدا لواقع ، ونقدا صريحا له ، من خلال الكشف عن طبيعته ، وجوهره ..

أهمية أخرى لهذا المعرض .. تتلخص في تجاوز الفنانة للمنطق السائد في اعمال الكثيرين ، خصوصا في اعمال بعض الرسامات العراقيات .. وهي : ان الفن ليس ترفا ، ولا لهوا .. وانما هو تعبير عن « حاجة » ، فكرية ، او نفسية ، وعن « احساس ملح » .. وبالتالي فهو حوار مع عالم ..

تبقى هناك مسألة اساسية تخص مستقبل ليلى العطار ، الفنانة. هي انها ، وفي هذا المعرض بالذات ، بدأت رحلة بحث من نوع فريد. وكما ان كل فنان يخلو عمله من البحث محكوم عليه بالانتهاء .. كذلك فان توقف هذا « البحث » عند نقطة بذاتها هو الآخر انهاء لمسيرة فنه في خط التطور ... ولقد بدأت « ليلى » من نقطة استطيع اعتبارها البداية الحقيقية لها . فاذا ما ارادت الوصول الى ما يطمح اليه كل فنان من تطور ، واستمرار لهذا التطور ، فان عليها ان تواصل « رحلة البحث » هذه ، مع تأكيد على ضرورة الاكتشاف الدائم ، بغية التوصل الى تجسيد الحقيقة التي تشغلها والتي بدأ بحثها الجديد فيها ، بظني ، من هذا المعرض .

معرض غياث الاخرس :

بلغة فنية بسيطة .. ولكنها عميقة ، عفوية عفوية رسوم الاطفال، الا انها بارعة .. وبألوان فرحة ، مشرقة ، ولكنها لا تخلو من تعبير عن ازمة او حزن .. بكل هذا .. قدم لنا الفنان السوري غياث الاخرس معرضه لاعمال الكرافيك في بغداد في مطلع آذار ..

هذا الفنان ، في جميع اعماله شديد الالتصاق بعصره ، وبزمنه، وبقضية الانسان فيه . وقد استغل ما يمتاز به « الكرافيك » من امكانات تقنية في تحريك « المناخ التعبيري » للوحة من خلال أدق التفاصيل ..

تحدث غياث عن نفسه .. وعن فنه .. وأجد ان اجزاء من حديثه هي الاكثر قدرة على تشخيص معالم فنه ..

ـ « انا فنان اعتمد على ما تتركه الرؤية البصرية من حدس

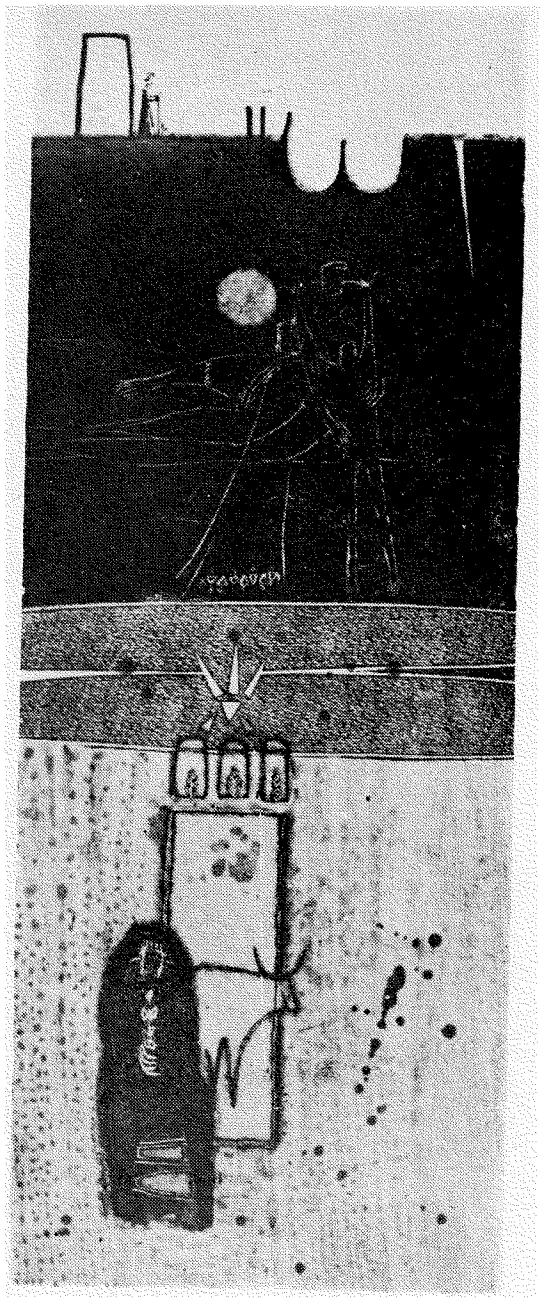

الصعود (كرافيك) لغياث أخرس

وانطباع .. كما اعتمد على معطيات التراث بشكل عام ، وعلى مؤثرات البيئة (الريف السوري) . ومن خلال ما يتركه ذلك من انطباعات ، اتعامل مع المعدن تعاملا مباشرا » .

ـ « الانطباع وجد ، ويتواجد باستمرار ، من خلال رؤيا وتفاعل مستمرين مع الحياة التي أحياها على أرضي .. تتهذب احيانا حسب ثقافتي التي اكتسبتها ، وخبرتي التي توصلت اليها لتلد الفكـرة ـ اللوحـة » .

ـ « في لوحاتي هناك موقف من الانسان . ربما اكون انا مرحـا ، ومتفائلا .. الا انني ابن هذا العصر بكل ما يحمل من تناقضات تواجه انسانه .. وبكل ما تحمل البيئة التي أحيا ضمنها من فرح وتفـاؤل وسعادة . احيانا تتازم وتجرح بعنف امام العالم المأساوي لانسان هذا العصر » .

ـ « اعتقد انني ، كشخص ، مباشر مع الآخرين .. ومبـاشر وتلقائي مع كل شيء اواجهه ، او يواجهني . وأتصور بأنني افـرح بسهولة ، وبسرعة .. واحمل ردة الفعل العكسيـة بنفس السهولة والسرعة . ربما أكون انفعاليا .. الا أنني أحس اكثر مما أفكر .. أي ان مواجهتي الحسية للاشياء اكبر من مواجهة الوعي لها » .

ـ « أعتقد أنه بأقل ما يمكن من العلاقات الفنية ـ الفكرية احاول ان اعبر عن اكثر ما يمكن من انطباعات وانفعالات واحاسيس اعيشهـا بشكل دائم مع الانسان .. مع البيئة .. ومع الطبيعة بشكل عام » .

ـ « اني ابحث عن هوية تحدد عن زماني ومكاني من هذا التراث، وهذه الحضارة لاجد اللغة التي استطيع التحدث بها بلهجة تشكيلية ، فنية معاصرة تتناسب والزمن الذي أنتمي اليه ..

.. انني لا انظر الى المحلية بشكل متعصب ، بقدر ما انظر اليها كمنطلق يشدني الى الارض ، والتراث .. ومنه انطلق الى العالم .. الى انسان اليوم » .

ربمـا تكـون هذه الفقـرات هي التفسيـر الاوضـح لاعمال الفنان غياث الاخرس ، سواء في معرضه هذا ، ام في اعماله الاخرى .. لانها تتضمن تشخيصا دقيقا لمعالم اتجاهه ، وتفكيره ، ورؤياه ..

فنانون فرنسيون معاصرون :

وكان معرض الفن الفرنسي الذي شغل اكبر قاعات المتحف الوطني للفن الحديث من ٢٠ شباط حتى ٢٠ آذار ، تظاهرة فنيـة كبيرة ، أتاحت للفنانين ، والنقاد ، ومتذوقي فن التعرف على جوانب عديدة من اتجاهات الفن الفرنسي المعاصر .. من خلال اعمال : كرومبير ، فوتربيه ، هيربان ، فالش ، أوباك ، هارتونك ، سولاج ، كـروبير ، فييرا دا سيلفا ، سانجيه ، بوليأكوف ، بنيون ، بودان ، بيسبير ، بوريس ، شاستيل ، دينوييه ، ديرول ، آيستيف ، كيشيـا ، هيليون ، لابيك ، لوموال ، مانيسييه ، مارشان ، موزيك ، نالار ، براسينوس ، شنيدير ، ساكلوات ، زاوو ـ وو ـ كي ..

وعلى الرغم من اهمية هذا المعرض .. وعلى الرغم مما يمكن ان يثيره من مناقشات لاتجاهات الفن المعاصر ، آن فـي العراق ، او العالم ، في ضوء ما يطرحه فنانو هذا المعرض .. فان شيئا من هذا لم يحدث .. للاسف !

مهرجان أفلام وبرامج فلسطين :

من التظاهرات الفنية الضخمة التي شهدتها بغداد في الفترة من ١٩ ـ ٢٢ آذار « المهرجان الدولي الاول لافلام وبرامج فلسطين » الذي عقد تحت شعار : « تحرير فلسطين ركيزة للسلام العالمي » . شاركت فيه وفود سينمائية واذاعية وتلفزيونية كبيرة من ست عشرة دولـة ، عربية واجنبية .. وعرضت خلاله افلام عديدة ، حول القضيـة الفلسطينية ، وحركات التحرر العالمي .. كما القي العديد من البحوث، ودارت مناقشات .. سنتقدم في العدد القادم من « الآداب » تقريرا شاملا عنها ..

مؤتمر التاريخ العالمي :

كما عقد في الفترة من ٢٥ ـ ٣٠ آذار ، مؤتمر التاريخ العالمـي ، الذي نظمته جمعية التاريخ والآثار في العراق .. حضرته شخصيات عالمية كبيرة ..

وسنتقدم في رسالتنا القادمة تقريرا مفصلا عن اعمال المؤتمر ، وما انتهى اليه .

بغداد — **ماجد صالح السامرائي**